النشاط الثقافي في العالم

فرنسا

فلسطين في باريس ...

بقلم : عدنان ابراهيم

* * *

مساء الجمعة ، تركت الحي اللاتيني متوجها الى الغرفة ، حالما وصلت ، ادرت زر المذياع باحثا عن اذاعة فرنسا الداخلية ، وعندما وجدتها ، رفعت الصوت ثم خرجت استأذن الجيران بنقل الهاتف الى غرفتي ، لقد وضعت القلم والورقة فوق المنضدة ثم سجلت رقم هاتف الاذاعة وشرعت انضد بعض المراجع حول القضية .

منذ لحظات وأنا اراقب عقارب الساعة ، انها الثامنة ولا بد من الانتظار . لقد اخذت كتاب غيفارا (الاشتراكية والانسان) ورحت أقرأ الفهرست ثم توقفت قليلا أمام (لا بد من خلق فيتنام أو اثنتين وثلاث ... من العار ان نكتفي بالتصفيق للفيتنام ... أن نتفرج على المأساة من الخارج ... ان التأييد الثوري يعني المشاركة حتى لا تبقى الفيتنام وحيدة امام البربرية الامريكية .

تركت الكتاب الذي قرأته مرات عديدة ثم رحت انصفح « معذبي الارض و « سوسيولوجيا الثورة الجزائرية » لفرانز فانون ، سمعت من زمان بالاسم ، منذ عام ١٩٦٠ يوم قرأت في دمشق بعض ما ترجم من كتاباته عن الثورة الجزائرية . ومنذ أيام تذكرت فانون وأنا اتجول في جبال الاوراس ، فأخذتني رغبة شديدة بالعودة لكتاباته وما احسه ورآه خلال معايشته للثورة الجزائرية ، اردت ان اكتب بدوري عما رأيته وسمعته في الجزائر : شتان ما بيننا ، لقد عاش فانون مع الثوار ومات بينهم ، وقد جئت اتجول بسلام فوق ارض الشهداء ، هذا لا يمنعني من الكتابة حول معركة التعريب ومعركة الاشتراكية التي تدور فوق ارض الشهداء ، لكني قرأت في « المجاهد » خبرا صغيرا يقول : « ستصدر الآداب عددا خاصا عن الفدائيين ! » لا بد من المشاركة في العدد ، من كلمة عن الذين يستشهدون ، عن الصامدين ، عن بعضنا الذي لم يسقط ، لم ييأس ، عن بعضنا الذي لا يقاتل الاعداء في المقهى أو في الماخور ، عن بعضنا الذي لا يتشاجر مع الصهاينة امام باعة الصحف في باريس أو لندن ولا يخترع المعارك التي يرويها للاخرين ، عن بعضنا الذي يمتنع عن معاقرة العنتريات كما نعاقر احيانا النساء واحيانا كؤوس العرق .

لا بد من المشاركة في عدد « الآداب » عن ابطال الفداء الذين هجروا الكهف وأهل الكهف وانتفضوا كالطود في وجه الاحداث ، لا بد من كلمات نحكيها عن العاصفة التي تجتث الجذور المنخورة ، وتحرر العروبة من النواح والتحسر على الامجاد ...

سأكتب عن المقاتلين ، عن بعضنا الصامد ، بعضنا الذي لا ينتظر الصباح ليلتهم الصحف الصباحية ولا يجلس في المقهى مساء لينشر الصحف المسائية ، ثم يحمر حماسا ، ثم يفرك يديه لاعنا الظروف والاحوال ... لولا العائلة ولولا الوظيفة ولولا الولاءات الحزبية ولولا الدولة ...

أود ان اكتب عن بعضنا الذي ترك العائلة والوظيفة والولاءات الحزبية لكنه لم يترك الارض ولم يتناس استفاتة الثكالى ولم يتنكر للكرامة .

أحب ان اكتب عنهم ، أحبهم لانهم يحبون الارض ، يعرفون رائحة التراب ، ويعرفون عدد الزيتونات التي غرسها اجدادهم وما قالوه قبل ان يرقدوا : عليكم بالبقاء في بلدكم واذا سافرتم عنه ، اياكم والضياع، انه لا يكف عن ذكركم .

سأكتب للاصدقاء عما يقوله الناس في باريس عن القضية. وجدت العنوان : فلسطين في باريس ! انه لا يخلو من البريق ، من المغناطيسية، انه يجذب عين القارىء ، حتى عندما نكتب عن الفداء فاننا نبحث عن البريق وعن الكلمات البراقة ، عن الجمال والالفاظ الجميلة ... هل الكلمات سلاح ام مغناطيس ؟ سلاح يذود عن الحمى ومغناطيس يجذب المعادن المتطايرة ، يجذبها نحو نقطة الثقل ، نحو الهدف ، يعني اليوم نحو تحرير الديار ، وعندما تستثير الكلمات العربية ما تختزنه النفس العربية من القدرات الكامنة ومن المروءات المكبوحة والاماني المكبوتة المبعثرة ، عندما تستثير الكلمات كل هذه الامكانيات ، وعندما تعمل على اخراجها من الكهف نحو ارض الابداع ومن الليل الطويل نحو الفجر الساطع .

فانها تعطي مبررات وجودها خلال المرحلة الراهنة، كل الباقي ثرثرة أو ما يقرب من الثرثرة .

وعدت الاصدقاء ان اكتب لهم من باريس وها انا اقلق سمعكم منذ لحظات بالحديث عن الكتابة وعن الكلمات : قل كلمتك وامش ... ما زلت أراقب عقارب الساعة التي تدور ببطء . وعما قليل يبدأ النقاش حول القضية الفلسطينية ، ستنقل الاذاعة الفرنسية هذا النقاش وسأحاول نقله للاصدقاء ، لاصحاب القضية ..

اتفقنا ، بانتظار النقاش الهام ، سأسرد عليكم بعض ما سمعته منذ ايام في الجزائر ، سأخرج عن الموضوع ؟ على القواعد المنطقية والمنهج العقلي ...؟ لا تخافوا ، حكاية واحدة ونرجع للحديث عن فلسطين في باريس ...

حدث ذلك على سفوح جبال الاوراس ، كنا في طريقنا من باتنة الى سطيف ، هل تعرفون مدينة سطيف ؟ يرتدي أهلها السواد ، منذ عشرين عاما وهم يرتدون السواد ... اخبروني عن سكان المدينة الذين خرجوا في نيسان عام ١٩٤٥ يطالبون باستقلال بلادهم ، فرد عليهم الاستعمار : سقط يوم الثامن من نيسان خمسة واربعون الف شهيد ، لا شك انكم تعرفون الآن اسم مدينة سطيف !

حدثوني عن مغارة تقع على طريق المدينة فأردت زيارة المغارة ، لكنها كانت مغلقة بسبب بعض الترميمات ، وعندما طلبت من الحارس ان يدلني على آثار الحرب الشعبية الجزائرية (فالحرب الشعبية مثل كل الاعمال الكبيرة تترك الآثار التي تدل عليها وتروي عنها الحكايات التي يتناقلها احفاد الاحفاد) انفرجت اساريره ، ثم راح الاخ الجزائري يحدثني باغتباط وانشراح عن احداث الثورة وعن حياة المجاهدين في الجبال وعن هبة الشعب لمؤازرة ومشاركة النخبة المجاهدة ، ثم رفع الاخ ذراعه مشيرا للجبال : امامك الاوراس ، فكلما توغلت فيها ، سترى الغابات المحروقة وسترى الجسور المكسورة وسترى آثار القرى التي

هدمها المستعمرون فوق رؤوس سكانها ... وسترى أيضا مـا غرسته الثورة ، ان الثوار الذين كسروا الجسور ليقطعوا الطريق على المستعمرين عادوا ليبنوا جسور الجمهورية الجزائرية وليشيدوا مدارسها ويرفعوا المساكن الشعبية ..

وبعد لحظة صمت ، عاد الاخ للحديث : لقد تعبنا وتألمنا خلال السنوات الطويلة وخسرنا الكثير من الشهداء ، لكننا اليوم احرار ، نحرث أرضنا ونأكل خيراتها ، ويذهب ابناء الشهداء للمدارس والذين هدم الاستعمار بيوتهم القديمة استعاضوا عنها ببيوت جديدة احلى وأجمل !

ويصمت الاخ الجزائري ثم يرجع فجأة ليسألني عن جنسيتي ، وحالما يعرف انني عربي من المشرق ، يسرع لمصافحتي بحرارة ثم يضطرب ثم ينتفض كالليث :

ـ يا لكم من تعساء ، ماذا تفعلون ؟

ـ اننا نستعد للمعركة .

ـ تستعدون للمعركة ، تستعدون للمعركة ! لقد سرق اليهود سيناء وفلسطين والجولان ، اغتصبوا القدس وما زلتم تستعدون للمعركة وحتى متى هذا الاستعداد ؟

ـ ثم اننا نقاتل ، الا تسمع اخبار الفدائيين ؟

ـ اننا نسمع اخبار الفدائيين الفلسطينيين ، نعم نسمع بهم ، نعرفهم ، نموت من اجلهم ونموت او نحيا معهم ، لكني اتساءل عما يفعله الآخرون ، أين العرب ؟

وبدون ان ينتظر الاخ الجزائري جوابي ، وبدون ان يدع لي مجالا للجواب ، راح يتابع حديثه ثم راح يزمجر :

تستعدون للقتال ، تستعدون للقتال ! اليهود على القناة وفي القدس وعلى مرتفعات الجولان وما زلتم تستعدون للقتال ، وتحيون ، تأكلون وتشربون وتنامون مع نسائكم ولا تخجلون من الناس !

بدأت أحس بالخزي أمام الاخ الجزائري ، بدأت أحس بالصغار أمام قمم الاوراس ، رحت اتساءل عن قيمة القصائد التي أنشدت امام شموخ قاسيون وحرمون ؟ أخذت تتردد على شفاهي بعض الاسماء ، بعض الكلمات ، بعض الشعارات ، بعض الاحجار المقدسة ! الصليبيون ، صلاح الدين ، حطين ، احمد عرابي والقاهرة ، يوسف العظمة وميسلون ، النيل والفرات وبردى ، ما معنى كل هذا ؟ تراه لا يعدو التورم الذي نخاله صحة وعافية ؟ الاثاث الثري الثقيل الذي يعيق المسافر عن متابعة السفر والمجاهد عن متابعة الجهاد ؟ ام انه ذلك الزخم الحافز ، ذلك الضوء الذي يأتي من وراء العصور فيشع في الوجدان ويشع امام العين ويشع على الدرب ، امام القافلة ؟!

المكتبة الوطنية وفروعها

البحرين ـ الخليج العربي

وكلاء توزيع كتب ومجلات وادوات مدرسية
اطلبوا منها

مجلة « الآداب » ومنشورات « دار الآداب »

وتلك الصور التي تتناقلها ابا عن جد ، عمر العادل وهو يدخل القدس ماشيا وراء حارسه الراكب فوق الجواد ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتم احرارا ؟! صلاح الدين على صهوة الحصان ، مكان الراعي وسط الرعية ، عرش القائد فوق صهوة الجواد ، عيناه مشرئبتان نحو المدينة ، زغردي ، زغردي ، عاد العرب يا بيت المقدس ، وأبطال القادسية ؟!

كل هذا من الماضي ، حدث كل هذا في الماضي ، اليوم ، عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين ، بيت المقدس في أيدي اليهود واليهود على قناة السويس التي حفرها الفلاحون الحفاة منذ مئة عام ومات من أجل تحريرها أحفاد الفلاحين عام ١٩٥٦ والجولان التي أجلى اليهود سكانها وراحوا يؤسسون المستعمرات، الجولان بيد اليهود أيضا نكاد لا نصدق؟!

(العدو امامكم والبحر من ورائكم) ما عساه يقول طارق ، لو نزل من عليائه ورأى ما نحن عليه ؟!

(اعرف اني لا املك القوة الكافية للانتصار على جيش الاستعمار الزاحف ، لكني سأقاتل حتى لا يقال ان المستعمرين قد دخلوا دمشق بدون قتال) ، على جانب الطريق في ميسلون يرقد يوسف العظمه ، كان وزيرا للدفاع ، سقط وهو يدافع عن تراب الوطن .

عبد القادر الجزائري يقارع خلال عشرين عاما جيوش الغزاة ، وعبد الكريم الخطابي ، لماذا ننسى عبد الكريم الخطابي ونحن نحكي عن الحرب الشعبية ؟! والغوطة والمزرعة ؟ وماذا عن معركة القسطل ، بعض الطلقات يا ناس ، بعض الاسلحة يا حكام ، ويسقط عبد القادر الحسيني ، يشم فوح دمه !

كل هذا من الماضي ، حدث كل هذا في الماضي ، أضغاث أحلام ، أحلام يقظة ، توارد الخواطر ، نقيق الجرح ، حتام ننتظر هتاف الجراح ؟

ما زال الاخ الجزائري منتصبا كقمة الاوراس . وما زال يهدر ثم يهدر ، لم أعد أسمعه منذ لحظات ، كنت مع الكلمات والصور البعيدة ، كنت ابحث عن قاعدة استند اليها خوف السقوط ، خوف التلاشي .

ثم يعود الجزائري المنتصب امامي للزمجرة :

يجب ان نحيا او نموت بشرف ، ان نقابل ربنا بدون خجل وان نرفع رأسنا امام الناس ، نحن عرب يا أخي وعلى العربي أن يعرف معنى المروءة .

ـ كفانا يا أخي ، ماذا فعلت اكثر من سواك ؟

وسرعان ما رأيت الرجل الذي كان يزمجر بغيظ وحنق تحت تأثير الجرح ، سرعان ما رأيته يمد يده لجيبه ويخرجها برسالة يحملها كالحجاب ، كالبركة ، كشيء يحمل رائحة الخلود :

ـ لم افعل شيئا اكثر من سواي ، لكني فعلت ما يمكنني فعله ، قدمت كل ما استطيعه ، اعطيت الجزائر ابني البكر ، لقد سقط امام عيني ، غير بعيد من هذه الغابات ، واليوم ، بعثت لفلسطين بالابن الثاني ، هاك ، اقرأ ما يقوله ابني ، انه هناك ، لقد قاتل ، جرح بذراعه ثم شفي وعاد للمعركة ..

اخذت الرسالة من الاخ الجزائري ، ورحت اتمعن صورة الشاب الذي ولد وشب في غابات الاوراس ثم سافر ليلتقي مع اخوته في المشرق العربي وليحرروا معا بيت المقدس !

بدأ منذ قليل نقاش ـ الاساتذة الفرنسيين ـ حول النزاع العربي ـ الصهيوني وحول موقف الحكومة الفرنسية من الاعتداء الاسرائيلي على مطار بيروت الدولي وحول الحظر الذي فرضته الحكومة الديغولية على شحن الاسلحة الى اسرائيل الخ .. الخ ...

اخذ ليو هامون ـ الاستاذ في كلية الحقوق بباريس والنائب الديغولي (اليساري ؟) بالحديث عن القانون الدولي وعن كون اسرائيل عضوا في الامم المتحدة وعن كثير من النقاط الاخرى ... ثم راح الصحفي دافيد روسيه بالرد على استاذ القانون : ان من حق الفلسطينيين الدفاع عن انفسهم ومقاومة الجيوش الغازية ، ثم ان الاحداث الاخيرة جاءت لتوضح ضرورة الاخذ برأي الحكومة الفرنسية والوصول الى حل عادل ... ثم يتابع الصحفي وعضو البرلمان الفرنسي والديغولي (اليساري) حديثه مع زميله الاستاذ ، ثم يشترك الآخرون بالحوار ، بالحديث عن النزاع وعن السلام وعن القانون الدولي ...

واخيرا ، ووسط زحام الحديث ، ينبري صوت أحد المستمعين :

ـ انك تحكي يا استاذ عن القانون الدولي وعن الامم المتحدة .. لكن فلسطين ليست في هذه المنظمة ، والشعب الفلسطيني لا يلتزم وليس عليه الالتزام بقوانين لا تعترف بوجوده ...

ـ لكن الامم المتحدة تعترف بوجود اسرائيل ...

نعم ، نعم يا اصدقائي ، الدول الكبرى تعترف بوجود اسرائيل ، لان الدول الكبرى تريد حاجزا في وجه امتنا الفتية ، والدول الكبرى تريد البقاء على الاوضاع الراهنة ، يعني ابقاء الجائع على جوعه واللاجيء تحت خيامه ، أو انها تريد التحسن علينا ، منحنا القوت اليومي والخيام والثياب ، والترحم علينا عندما نموت والدفاع عنا بالكلمات والخطب عندما يهطل علينا النابالم .

نعم يا اصدقائي ، الدول الكبرى ، الامم المتحدة تعترف بأسرائيل كما كانت تعترف بالاستعمار الفرنسي في الجزائر والبريطاني في عدن والامريكي في بورتوريكو وسواها ، وفي الامم المتحدة التي يحكي السادة باسمها يجلس ممثل فورموزا ليحكي باسم الصين ، واما ملايين الصين الشعبية ، وملايين فيتنام .. فهي تحكي بلغة أخرى لا تعرفها الامم المتحدة ، هذه الملايين الثائرة ، ملايين القارات الفقيرة والجائعة والمضطهدة تعلمت بأن لغة الحرية هي لغة المعول والبندقية ، وان التحرير ، كل تحرير يأتي ثمرة الصراع وثمرة الاضاحي . وان هذه الطريق ، طريق التحرير هي الوسيلة الوحيدة بيد الشعوب لفرض نفسها وتحقيق ابعاد وجودها .

وبعد يا اصدقاء ، وعدتكم بالكتابة من باريس ، وضعت للرسالة ذلك العنوان اللامع : فلسطين في باريس ، واردت نقل نقاش الاساتذة الفرنسيين حول القضية ، ما يقوله الناس عن فلسطين وعن أعمال الفداء ؟

ما زالت الصحف الكبيرة ودور الاذاعات تحكي عن الصهيونية وعن اسرائيل كما تحكي عن أفريقيا الجنوبية وعن تفوق العرق الاوروبي والحضارة الاوروبية ... ووسط امواج الدعاية .. يرتفع صوت الشباب الفرنسيين ، بعض الثوريين الباحثين عن مثال ينقذهم من الضياع ، بعض الذين رفضوا الرضوخ للامر الواقع ورؤية الاشياء بموضوعية وديبلوماسية .. بعض الذين رفضوا البقاء داخل القوقعة وخرجوا يهتفون بحياة فلسطين وحياة فتح ...

ولاول مرة يرتفع الهتاف عبر شوارع باريس : تحيا فتح ، يحيا نضال الشعب الفلسطيني ، النصر لفتح ..

كلمات وشعارات وهتافات ... يصغي العالم لزغاريد الاضاحي ، ويبدأ العالم بوعي القضية عندما نضحي من أجل القضية ، .. وذلك المساء ، راح الشباب الفرنسي يهتف لفلسطين لان شعب فلسطين قد خرج من الكهف ليكتب بالدم دستور الجمهورية الفلسطينية الشعبية .

باريس

عدنان ابراهيم

صدر حديثا :

- **الثورة المسلحة في فنزويلا**
  تأليف : دوغلاس برافو
  ترجمة : نزيه الحكيم
- **فلسطين والخطر المصيري**
  تأليف : الاستاذ هنري ابو خاطر
- **في التنظيم الثوري**
  تأليف : جوزف ستالين ، ليون تروتسكي وغيرهما
  ترجمة : جورج طرابيشي
- **التخطيط الاقتصادي**
  تأليف : الدكتور محمود الحمصي
  (طبعة جديدة وموسعة)
- **النقد الذاتي بعد الهزيمة**
  تأليف : الدكتور صادق جلال العظم
  (طبعة ثانية)
- **العمل الاشتراكي وتناقضات الوضع اللبناني**
  تأليف : اشتراكيون لبنانيون
- **حوار مع مطالب بالبوليس الدولي**
  تأليف : فادي احمد
- **قضايا الثورة العربية**
  تأليف : الدكتور سعدون حمادي
- **الماركسية والمسألة اليهودية**
  تأليف :« ناجي علوش
- **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي**
  للدكتور عبد العزيز الدوري
- **اوراق ايامي (مذكرات)**
  تأليف : طالب مشتاق
- **الماركسية والشرق**
  تأليف : الياس مرقص
- **الاشتراكية الخيالية**
  تأليف : مينايف
  ترجمة : هنري رياض
- **تشي غيفارا**
  (حياة صديق وموته)
  تأليف : ريكاردو روخو
  ترجمة : نزيه الحكيم
- **وحدة القوى العربية التقدمية**
  تأليف : الدكتور عصمت سيف الدولة
- **بيت من نجوم الصيف**
  شعر : علي السبتي
- **اكليل الشوك**
  شعر : مي صايغ جبجي

منشورات دار الطليعة بيروت ص ب ١٨١٣